كلمة عن لغة علم الاجتماع

أ.د.زعيمي مراد
قسم علم الاجتماع
جامعة عنابة

ملخص

نعالج في هذا المقال جانبا هاما من الجوانب المتعلقة بلغة علم الاجتماع، هذه اللغة التي تقتضي مما تقتضيه انتقاء واستخداما مناسبين للمصطلحات والمفاهيم والتعريفات بما يسمح للعلماء والباحثين بالتعبير السليم عن أفكارهم وتقديم أعمالهم في دقة ووضوح، ويسهل التواصل العلمي بينهم، وبناء النظريات العلمية والمساهمة في تقدم هذا العلم.

Résume

Cet article a été conçu pour aider les étudiants et les chercheurs débutants, en éclaircissant la confusion qu'on vois chez eux, en ce qui concerne l'utilisation des termes, des concepts et des définitions, à savoir la confusion même entre ces derniers, ainsi que de montrer le bonne utilisation qui permet l'expression dans une langue sociologique.

حين ننظر في اللغة المستعملة عند الغالبية من طلبتنا يتضح لنا أنهم يوظفون الكثير من المفردات العامية وغير العلمية، ويسيئون استخدام المصطلحات، ويميلون ميلا جارفا لاستخدام العبارات الأدبية كالمجاز والكناية والتشبيه والمترادفات بحجة تنويع الأساليب التعبيرية، أو بحجة أن علم الاجتماع ليس من العلوم الدقيقة، فهو يندرج ضمن العلوم الإنسانية وأقرب إلى الأدب، فيستعملون المصطلح الواحد للإشارة إلى ظواهر مختلفة، أو عدة مصطلحات للإشارة إلى ظاهرة واحدة، كأن يستخدم الطالب عند تحريره

لمقال أو إعداد بحث علمي حول **النخب الاجتماعية** كلمات **النخبة، الجماعة، الطبقة، الفئة، الزمرة**، كمترادفات بالرغم مما بينها من اختلافات وفروق في المفاهيم الدالة عليها.

كما قد يتبنون مفاهيم مختلفة لمدارس مختلفة حول موضوع واحد، كأن يوظفوا مفهوم **الله** أو مفهوم **البناء الاجتماعي** أو مفهوم **الدين** تارة من خلال المنظور الإسلامي وتارة من خلال المنظور الماركسي وتارة أخرى من خلال المنظور الوضعي.

وكثيرا ما نجد الطلبة، وتحت إلحاح المشرفين على أعمالهم، يخصصون مبحثا أو فصلا في مذكرات التخرج أو رسائل الماجستير أو أطروحات الدكتوراه تحت عنوان **تحديد المفاهيم** ويركزون على المصطلحات الواردة في العنوان، ويعتقدون أن تحديد المفاهيم يتعلق بتلك الكلمات فقط، ويغفلون بعد ذلك عن الكثير من المصطلحات أو يستخدمونها كيفما اتفق، وقد يعتمدون على مراجع مختلفة، وفي العديد من الحالات يكون مفهومها للمصطلح الواحد متباينا، فيقعون في التناقض دون وعي منهم.

و عندما نقرأ ما كتبوا في ذلك المبحث أو الفصل نجد، في الحقيقة، أنهم قدموا تعريفات لهذه المصطلحات وليس تحديدا للمفاهيم.

وكثيرا ما نجد عند الطلبة خلطا بين المصطلح والمفهوم من جهة، وبين المفهوم والتعريف من جهة أخرى، فيطلقون أحدهما على الآخر، وكأنهما مترادفين، بالرغم مما بينهما من فرق كبير، وإن كانت بينهما أيضا علاقة وطيدة.

وهو الخلط الذي يقع فيه أيضا بعض الكتاب العرب عندما يكتبون أو يتكلمون عن المصطلح أو المفهوم، بحيث نجد أن كثيرا منهم لا يفرق بين الأمرين، وذلك يعود، في نظري، إلى سوء الترجمة، فقد يترجم الكاتب كلمة concept إلى **مفهوم** وهي الترجمة الصحيحة أو إلى **مصطلح** وهي ترجمة خاطئة إذ أن الترجمة الصحيحة للمصطلح هي terme.

كل هذا في الحقيقة لا يخدم علم الاجتماع، كما لا يرتقي بطالب علم الاجتماع إلى مستوى هذا العلم.

والواقع أن التشتت والاضطراب في النظام العلمي الذي نشاهده عند الطلبة، ومنها ضعف **اللغة العلمية** عندهم، سواء على مستوى التدرج أو ما بعد التدرج ناجم، في جانب منه، عن عدم الالتزام بالمصطلحات العلمية لعلم الاجتماع، وعن سوء استخدام وتوظيف لها وللمفاهيم والتعريفات.

ونحن إن كنا نستخدم في حديثنا اليومي كلمات وعبارات دون أن نحتاج إلى تفسيرها أو تحديد معانيها مسبقا، فذلك راجع إلى حكم العادة، فمنذ الصغر نتعلم، بالتقليد والمحاكاة، كيف نتحدث مع الآخرين، وسياق الكلام يساعد على توضيح المعاني والأفكار والتصورات التي تعبر عنها الكلمات المستخدمة في حديثنا.

أما العلماء فيستعملون، من أجل الكشف عن الحقائق والتعبير عنها وتعريف الناس بها **لغة علمية**، هي لغة المجتمع أصلا، ولكنهم يستخدمون هذه اللغة استخداما مناسبا، فلغة العلم تقتضي مما تقتضيه انتقاء واستخداما مناسبين للكلمات والمعاني، يسمح للعلماء والباحثين بالتعبير السليم عن أفكارهم وتقديم أعمالهم في منتهى الدقة والوضوح، وبذلك يسهل التواصل العلمي بينهم، ومن خلال هذه اللغة العلمية يمكنهم أيضا بناء النظريات العلمية.

إن الكلام عن لغة علمية في علم الاجتماع يجب أن لا يدفعنا لتصور لغة صعبة معقدة جافة وبعيدة المنال، فذلك مخالف تماما لما يريده العلماء، ذلك "أن العلم يتميز، ليس من خلال لغة صعبة الفهم أو مبهمة ولكن أولا وقبل كل شيء، من خلال استعمال الكلمات حتى تلك المستعملة في التعبيرات العادية اليومية بعد أن يعطيها طابعا رسميا متميزا لأنه يسعى إلى تثبيت المعاني وتوحيدها" (أنجرس 1996–21)، إنها لغة بسيطة واضحة ولكنها دقيقة.

ومن هنا فإنه من الضروري أن يكون لدينا وعي تام بمشاكل المصطلح والمفهوم والتعريف حتى نحسن استيعاب ما كتبه غيرنا والتعبير بلغة علم الاجتماع ونحقق التواصل العلمي فيما بيننا، ونساهم في تقدم هذا العلم.

فبدون استيعاب الطالب لمصطلحات علم الاجتماع ومفاهيمه لا يمكنه فهم علم الاجتماع أو الاستفادة منه.

ونظرا لأهمية هذه العناصر في أي عمل علمي فإن الواجب يحتم علينا التمييز بينها وضبط معانيها، حتى يسهل علينا تقويم أعمالنا وتحسينها. ومن هنا كان الاهتمام بالمصطلحات والمفاهيم والتعريفات أمرا لا بد منه.

المصطلحات:

يعرف **ونتن شستر** المصطلحات بقوله: "المصطلحات ما هي إلا كلمات تستخدم لتحديد أو وصف وتمييز مفهوم أو فكرة ما" (علي شتا 1993 – 42) .

ويعرفه **عبد الباسط محمد حسن** بقوله: "الاصطلاح العلمي هو الوسيلة الرمزية التي يستعين بها الإنسان للتعبير عن المعاني والأفكار المختلفة بغية توصيلها لغيره من الناس" (عبد الباسط محمد حسن 1982 – 173– 174).

فالمصطلحات هي الكلمات المفردة– أوصاف وأسماء– المميزة التي تختصر المعاني الكثيرة التي تم تجريدها عن المشاهدة العلمية للحقائق والظواهر والأشياء التي تحيط بنا، أو هي تجريد لها ووصف مختصر يشير إليها أو يعينها مثل: الله، العالم، الإنسان، الجماعة، المجتمع، الدور، المركز، الحضارة، الثقافة، الفئة، الطائفة، الطبقة، الشخصية، الفطرة، الغريزة، التغير الاجتماعي، التدافع، النزاع، الصراع، التنافس، البيروقراطية، الإدارة، النظام، التنظيم، القيادة، السلطة، الدولة، المسؤولية، التماسك الاجتماعي، التفكك الاجتماعي، الضبط الاجتماعي، الامتثال... الخ، هذه الكلمات المنتقاة من اللغة العادية اليومية والتي تنتشر بين العلماء تسمى **المصطلحات**، لأنه تم الاصطلاح عليها من طرف عدد كبير منهم وأحرزت قدرا لا بأس به من الاتفاق بينهم، وكل منها يشير إلى حقيقة من الحقائق أو ظاهرة من الظواهر.

فاللغة لا تكون علمية إلا بشروط منها وجود هذه المصطلحات التي تعطي للعلم طابعه وتبعده عن النشاط العادي للناس، وتميزه عن مجالات المعرفة الأخرى.

وبناء عليه يمكن القول بأن المصطلحات هي رموز لفظية محددة تطلق على الأفكار المعممة التي تم تجريدها عن الواقع. أو أنها ترمز للجوانب التي تتناولها المفاهيم، وبالتالي فإن المصطلحات تستمد معانيها من السياق الفكري الذي تكون بداخله، وبذلك تكون ضرورية لتحقيق الاتصال الفكري بين التصور النظري والعمل الميداني.

"ويضطرنا تباين الأنشطة الإنسانية وتخصيصها إلى تطوير مجموعة من المصطلحات التي تتميز بقدر ملائم من التباين، وقدر كاف من التخصص يناسب الظواهر التي نتصدى لدراستها" (علياء شكري 1979 – 175).

فالعالم يستخدم المصطلحات للتعبير، بلغة العلم الذي ينتمي إليه وبأسلوب مختصر ومركز وبدلالات واضحة ودائمة وثابتة، عن القضايا العلمية التي يعالجها. وفي غياب لغة غنية بالمصطلحات العلمية المتخصصة يتحول الاتصال العلمي إلى عمل شاق وغير مثمر، بل يتحول إلى عبث.

فالعالم إذ يستخدم المصطلحات فإنما يقوم باستخدام لغة اختزالية تمكنه من تحقيق الترابط والاتساق المنطقي داخل النظرية والتعبير عن أفكار كثيرة بكلمات قليلة، "فالمناقشة العلمية المنظمة سوف تصبح أمرا مستحيلا إذا لم يستخدم الباحث مصطلحات على شيء من التحديد الدقيق. وبدون اللغة الفنية المتخصصة يصبح الاتصال العلمي شيئا مرهقا وقاصرا في نفس الوقت" (علياء شكري 1979 – 175).

"وطالما أن العلم يسعى إلى بحث قطاعات محددة من الواقع من خلال نسق فكري مجرد قادر على تفسير هذه القطاعات، فإن كل فرع من فروع العلم عليه أن يطور مصطلحاته ومفاهيمه لكي يستطيع أن يجعل مكتشفاته قابلة للتواصل" (محمد علي محمد 1983 – 90).

وفي علم الاجتماع أيضا نحن مطالبون بامتلاك لغة متميزة وخاصة بهذا العلم رغم كونها منبثقة من لغتنا اليومية في الحياة الاجتماعية، لأن ذلك من السبل اللازمة لتشييده.

ونظرا إلى أن الظواهر لا تخلو من الغموض والتداخل، وأن المصطلحات قد تكون لها معان مختلفة على مستوى الاستعمال من مجتمع لآخر، أو جماعة لأخرى، فإن ذلك يشكل بعض العوائق المعرفية والمنهجية أمام الباحث، وهو ما يتطلب منه القيام بتحديد الأبعاد المختلفة للمصطلحات التي يتناولها في عمله العلمي، ويقدم لها وصفا شاملا ودقيقا لمعناها بعبارات سهلة وبسيطة ومتداولة في لغة علم الاجتماع وخالية من الكلمات العامية أو الأجنبية.

ونظرا لاختلاف مواضيع العلوم ومجالاتها، فإن لكل علم مصطلحاته الخاصة، لهذا فإن انتقاء المصطلحات يعد أمرا ضروريا في علم الاجتماع حتى يستطيع الباحث والدارس على حد سواء جمع المعطيات وتحليلها وتفسيرها وتقديمها للآخرين، وبدون ذلك لا نأمن التناقض والتضارب والغموض في ما يمكن أن نصل إليه من نتائج.

والمصطلحات تشكل أحد العناصر الرئيسية في النظرية العلمية، فأي نظرية علمية تتكون من عدد هائل من المصطلحات التي ترتبط فيما بينها منطقيا، وهي نتائج للتفكير العقلي الإنساني، باعتبار أن الإنسان لديه استعدادا فطريا لذلك، قال الله تعالى: **وعلم آدم الأسماء كلها** (البقرة 31)، فأصل الكلام الذي هو الأسماء موجود عند الإنسان بالقوة، قوة الخلق من الله تعالى، والإنسان ينميه بالفعل، وعليه فالمصطلحات ليست مستمدة مباشرة من المشاهدة أو الخبرة الحسية، ولا تمثل انعكاسا للواقع، بالرغم من أن ذلك قد يثير في الإنسان

الرغبة في توليد المصطلحات، لهذا فكلما ازدادت خبرة الإنسان بالعالم المحيط به وتعمقت، ازداد عدد المصطلحات التي يستخدمها.

وقد تكون المصطلحات قريبة من الحقائق والموضوعات التي ترمز إليها مثل المرأة، الرجل، الطفل، المدير، وقد تكون على مستوى أعلى من التجريد مثل الشخصية، المكانة، الدور، القيادة، الدين، النظام الاجتماعي.

والعالم الذي يستخدم مثل هذه المصطلحات، يعلم أنه يتكلم عن بناءات اخترعها واستخلص **واقعيتها** بطريقة غير مباشرة من الظواهر ليعبر بها عنها، وبالتالي فهي ليست إلا حقائق افتراضية، ونحن لا نستطيع أن نرتب على هذه المصطلحات وحدها أي معرفة خاصة محددة، فهي لا توفر لنا إلا المادة الخام التي تمكننا من التخاطب العلمي، بما أنها لا تزيد على أن تكون وصفا تجريديا لجوانب من الوجود الاجتماعي.

ويؤكد العلماء على أن الكلمات لا تعتبر مصطلحات علمية إلا إذا حازت على جملة من الخصائص، فعلى سبيل المثال نجد أن **ماكيفر** حدد أربعة خصائص للمصطلح حيث يقول: "وعلى ذلك فينبغي أن يكون لاصطلاحاتنا **معان واضحة** و**وحيدة** و**دقيقة** رغم كونها من اصطلاحات الحياة اليومية، وتستخدم تبعا لذلك للكثير المتعدد من الأغراض." (ماكيفر 1974 – 13).

ونجد أن **موريس أنجرس** أيضا حدد أربعة خصائص للمصطلح يرى أنه لا بد أن تتوفر فيه حتى يقبل علميا وهي:

1. **الوضوح:** فيكون غير مبهم ولا لبس فيه، بحيث لا يترك أي مجال للشك بالنسبة لفهمه ولا نحتاج إلى تأويله.
2. **الدقة:** بحيث يعبر المصطلح عن الموضوع المحدد بتعبير يجنبنا الخلط والتداخل مع مواضيع أخرى.
3. **أن يكون له معنى:** أي أن يقدم معلومات بالنسبة لواقع معين ومن خلال تصور معين عن ذلك الواقع، ذلك التصور الذي يتعلق بدوره بإطار نظري معين.
4. **أن يكون حياديا:** أي أن لا يكون مصاغا بصيغة التمني أو بصيغة الحكم.(موريس أنجرس 1996 – 104 – 106).

ونلاحظ أن كلا من ماكيفر وأنجرس قد اتفقا على ثلاث خصائص وهي الوضوح، الدقة وأن يكون لها معنى، وأضاف ماكيفر أن تكون وحيدة، أي لا يشترك المصطلح الواحد

مع غيره من المصطلحات للدلالة على المفهوم الواحد، في حين أضاف أنجرس خاصية أخرى وهي الحياد.

وإن كنا نوافق **أنجرس** على الخصائص الثلاث الأولى، فإننا نرى بأن الخاصية الرابعة ليست من خصائص المصطلح، بل هي من خصائص الفرضية، والشرح الذي يقدمه هو نفسه لهذه الخاصية يدل على ذلك.

"والحقيقة أن المشكلة لا تكمن أساسا في المصطلحات نفسها، وإنما في عدم الاتفاق حول تعريفها، وتضارب معانيها، وعدم الاتفاق على أسلوب واحد في استخدامها" (علياء شكري 1979 – 176).

يقول **إيفانس بريتشارد:** " فنحن دائما في حاجة إلى شرح وتحديد المصطلحات التي يستخدمها الباحثون نظرا إلى أن معظمها مستمدة من لغة الحياة العملية" (محمد الغريب– د.ت–49). وهذا لا يعني أن يستغرق الباحث جهده كله في تحديد كل المصطلحات فذلك أمر مستحيل حتى وإن أراد ذلك، بل يكفي الباحث أن يحدد المصطلحات الأساسية ويؤطر عمله بنظرية من النظريات ويلتزم بمصطلحاتها ومفاهيمها، وفي هذا الصدد يقول **نورثروب** في كتابه منطق العلم والإنسانية: "إن الإصرار على أن كل مصطلح نستعمله في حوارنا العلمي يجب أن يعرف إجرائيا فيه تضييق شديد وتحديد أشد وهو بالتالي غير مفيد علميا". (عاقل فاخر 1979 – 66).

وعلينا أن ندرك أن لكل نظرية في علم الاجتماع مفاهيمها الخاصة وفي كثير من الأحيان مصطلحاتها الخاصة أيضا، فهناك نظريات تتميز بنوع من المصطلحات وتشتهر بها دون غيرها من النظريات، فمصطلحات مثل: التدافع، الفطرة، الزاجر، الخلافة، الهداية والضلالة، هي مصطلحات تميز النظرية الإسلامية، ومصطلحات الصراع الطبقي، الثورة، البناء الفوقي والبناء التحتي، المادية التاريخية، المادية الجدلية تعد من المصطلحات التي تميز النظرية الماركسية، كما أن مصطلحات التوازن، التنافس، النظام والوظيفة تميز النظرية الوظيفية، وفي هذا الصدد يقول علي شتا: "وبذلك فإن النظرية تضع مجموعة من الكلمات أو المصطلحات التي لها طابعا عاما في علم الاجتماع. ومن تلك المصطلحات: المعايير، القيم، المجتمع ... الخ (علي شتا 1993 –42)، وهو أيضا ما يشير إليه عبد القادر هاشم عندما يقول: " تطرح الرؤية الإسلامية مصطلحات متناسقة ومحدودة إسلاميا، متكاملة وشاملة لجوانب الحياة، وترفض أية صورة من صور الفصل بين جانب وآخر من جوانب

الحياة الإنسانية (عبد القادر هاشم رمزي 1984 – 87). ولهذا يجب عدم الخلط بين المصطلحات عند استخدامها.

يقول ماكيفر "وأما إذا أقبلنا معا على دراسة موضوع اجتماعي أو تحليله، فإن الواجب يقتضي منا، عندما نستخدم كلمة أو عبارة ما أن نتفق على أن ندل عليها، وأن نشير إليها في الذهن، على أساس أنها ترمز لشيء واحد " (ماكيفر 1974 – 13).

فعلى الباحث في العمل العلمي أن يستخدم المصطلحات مع الاحتفاظ على دلالة واحدة لها، أي أن يربطها بمفهوم واحد من بين المفاهيم التي يتعرض لها، فلا يصح له أن يستخدم مثلا مصطلح **الله** مرة من خلال كتابات **ابن خلدون** ومرة من خلال كتابات **دوركهايم** ومرة من خلال كتابات **ماركس** ثم يحاول الجمع بينها بل عليه أن يتبنى مفهوم أحدهم، وإن تعرض للمفهومين الآخرين فبالنقد والتحليل في ضوء المفهوم الذي تبناه، وهو معنى قولنا: **تحديد المصطلحات.**

ولا يكفي أن يحدد الباحث المصطلحات بل عليه أن يوحدها أيضا، فيلتزم بمصطلح واحد للإشارة إلى مفهوم واحد أو شيء واحد أو ظاهرة واحدة ولغرض واحد في البحث الواحد على الأقل، وحتى في حالة تطابق مفاهيم بعض المصطلحات مثل: **المكانة** و **المركز** و**الوضعية**، عليه أن يستعمل كلمة واحدة منها في بحثه كله، وهو معنى قولنا: **توحيد المصطلحات.**

إن **تحديد المصطلحات** و**توحيد المصطلحات** مما يجنب العالم والباحث والدارس، على حد سواء، الوقوع في الغموض واللبس وسوء التأويل والتناقض، ومما يساعد غيره على فهم ما يقول أو يكتب.

التعريفات:

إذا كان المصطلح يتكون من كلمة أو كلمتين فقط، فإن التعريف يتحدد بعدد من الكلمات والجمل.

والتعريف هو تعيين للخصائص والمميزات الأساسية المتعلقة بكائن أو شيء أو ظاهرة أو فعل أو سلوك. أو هو المعنى الموجز للمصطلح الذي يشير إلى كائن أو شيء أو ظاهرة أو فعل أو سلوك.

وهو تجريد ذهني مختصر مصاغ في جمل محدودة لتوضيح مصطلح ما، وقد يكون اسميا أو إجرائيا.

" وتشير التعريفات الاسمية للمعنى النظري للمصطلح، وهي تعريفات مجردة لتصورنا للمصطلح.

أما التعريفات الإجرائية فتتضمن التأويلات القياسية التي يوجهنا إليها التعريف الاسمي. وذلك يشير إلى أن التعريف الإجرائي بمثابة وصف للكيفية التي يتم بها قياس المصطلح " (علي شتا 1993 - 135 – 136).

فالتعريف الاسمي يحدد معنى المصطلح باستعمال مصطلحات أخرى، وهكذا فنحن نعرف **الوزن** بأنه **ثقل الأشياء**، كما نعرف **القلق** بأنه **خوف شخصي** كما نعرف **التعاون** بأنه **المساعدة المتبادلة بين الأشخاص.**

ونذكر من التعريفات الاسمية على سبيل المثال تعريف ابن خلدون للعصبية **الذي يقول فيه:**" **العصبية هي** النعرة **على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة**"(ابن خلدون1956– 594)، **وتعريف** بوتومور للنخب **الذي يقول فيه: إنها** " فئات **ذات وظائف، ولها وضع رفيع في المجتمع**" (بوتومو 1972 – 13)، **وتعريف** ماكيفر للمجتمع **الذي يقول فيه:** "**إن المجتمع نسق مكون من العرف المتنوع والإجراءات المرسومة، ومن السلطة والمعونة المتبادلة، ومن كثير من التجمعات والأقسام، وشتى وجوه ضبط السلوك الإنساني والحريات**" (ماكيفر1974 – 16). إن هؤلاء العلماء استعملوا في هذه التعريفات عددا من المصطلحات ، كل منها يحتاج إلى تعريف، ولكل منها مفهوم خاص عندهم.

أما التعريف الإجرائي فيحدد معنى المصطلح عن طريق تعيين الإجراءات الضرورية التي يجب على الباحث اتخاذها لقياسه.

والتعريفات ضرورية في اللغة العلمية، فهي تساهم في ضبطها وتوجيه النقاش العلمي وتسهيله، وتصل بين مستوى التصور النظري ومستوى الملاحظة وتمكن الباحثين من قياس المتغيرات. وبالرغم من أن التعريفات لا يستغنى عنها في العمل العلمي إلا أنها لا تقدم إلا معاني محدودة للمصطلحات التي يراد تعريفها، ذلك بأنه ما من تعريف يمكن أبدا أن يعبر عن المعنى الغني والمتنوع للعقل البشري ومشاعره.

المفاهيم:

يعرف السرياقوسي المفاهيم بقوله: " المفاهيم العلمية هي معان يحددها العالم للمصطلحات العلمية التي يستخدمها في التعبير عن وقائع العلم وحقائقه" (محمد السيرياقوسي – 1986 – 124).

ويعرفها **موريس انجرس** بأنها:" **تمثيل عقلي وعام ومعبر لظواهر أو مجموعة ظواهر ولما بينها من علاقات**" (موريس أنجرز – 1996 – 108).

ويعرفها **جود وهات** بقولهما:" **إن المفاهيم ما هي إلا بناءات منطقية تولدت عن الخبرات المعقدة**" (علي شتا – 1993 – 49).

ويعرفها معن خليل عمر بقوله: " أنها الصورة الذهنية– الإدراكية المتشكلة بواسطة الملاحظة المباشرة لأكثر من مؤشر واحد من واقع ميدان البحث"(معن خليل عمر 1996 – 56).

فما تدل عليه كلمة **العصبية** بالنسبة لابن خلدون، وما يرتبط بها من تصور ذهني ومعاني وقضايا، ما هو إلا **مفهوم** ابن خلدون للعصبية.

فالمفاهيم هي مجموعة التصورات النظرية والمعاني الفكرية وحتى المشاعر التي تعبر عما يعنيه ويشير إليه المصطلح، أو هي عبارة عن بناءات تصورية تنطوي على الكثير من العناصر والأبعاد والمعالم الواقعية لصفة معينة لوحدة تصورية حول موضوع ما يكون الباحث قد جمعها من المشاهدات الحسية والخواص النوعية، والوقائع، والعلاقات المعقدة وضمها بعضها إلى بعض "ذلك أن المفاهيم تحدد لنا الشروط الواجب تحققها حتى يمكننا التحقق من أن الظواهر المطروحة ظواهر اجتماعية أصل" (محمد محمود الجوهري1973 – 18). بحيث تمكننا من توظيف المعارف السابقة والمعالجة الآنية الموضوعية للظواهر والرؤية المستقبلية الشاملة والمتكاملة للحياة .

ولهذا فإنه إذا كانت تكفينا جملة أو جملتان لإعطاء تعريف للعصبية أو للمجتمع أو للنخبة، كما سبق ذكره، فإن تحديد مفهوم هذه المصطلحات قد يحتاج إلى فصول في كتب، بل إلى كتب بكاملها، مثلما فعل **ابن خلدون** في مقدمته لما عقد فصلا عن **العصبية**، وما فعله **ماكيفر** و**بيدج** لما ألفا كتابا بكامله عن **المجتمع** بعنوان المجتمع، كذلك ما فعله **بوتومور** لما ألف كتابا بكامله عن **النخبة** بعنوان النخبة والمجتمع، هي مفهوم كل منهم للموضوع الذي أثاره.

والمفاهيم "تنطوي– كما يقول **رايشنباخ**– على قدر من التعسف والتحكم، ذلك أن العالم حر في أن يختار ما يشاء من المصطلحات وأن ينسب لها ما يشاء من المفاهيم التي يتفاوت انطباقها على الواقع"(صلاح قنصوة 1981 – 186 – 187). فالمفاهيم ليست هي الظواهر الفعلية، وليست هي المعطيات الحسية, ولا هي صورة طبق الأصل لها، لأنها تنطوي على تصورات عقلية وبناءات منطقية وتجريد منطقي كذلك، ومهما توفر فيها من شروط فهي لا تتطابق تطابقا تاما مع الواقع.

وبما أن المفاهيم تمكن العالم من تحديد الدلالة التي يريد أن يضعها حول الوقائع التي يدرسها، فإنه يسعى إلى أن تكون هذه المفاهيم متميزة عن المفاهيم المتناولة في الحياة اليومية للإنسان العادي، وخاصة فيما يتعلق بوضوحها وابتعادها عن سوء التأويل أو كثرة التأويلات، وهو ما يتيح له فرصة أكبر لحسن الفهم والتوقع.

و"إن الملاحظات العلمية والإطار النظري الذي يوجه هذه الملاحظات يؤكدان معا على أهمية المفهوم ووظيفته العلمية، وذلك لأن العلم يحاول بحث جوانب معينة للحقيقة بنسق فكري مجرد، يؤول هذه الجوانب ... ونظرا لأن المفاهيم أساس لصياغة العبارات التي ينظمها النسق التجريدي للعلم، فقد يشار للنسق النظري للعلم على أنه نسق المفاهيم أو نسق تصوري كما درج البعض على ترجمته conceptual scheme بالإطار التصوري"(علي شتا 1993 – 48).

ولكي يكون المفهوم علميا يجب أن يستند إلى إطار مرجعي أو رؤيا افتراضية حول الموضوعات التي يشير إليها، وبما أن الأطر المرجعية في علم الاجتماع ليست واحدة كان لزاما على الباحث أن يختار الإطار المناسب الذي يطمئن إلى كفاءته العلمية والتصورية والمنهجية، "ويبقى أن نشير فقط إلى أن بعض المفاهيم تنتمي إلى نظريات محددة، ولا يصح إقحامها في بحوث نظرية أخرى. وأي خلط من هذا القبيل يدل بما لا يدع مجالا للشك على هشاشة البحث ووهن الباحث" (فضيل دليو 1999 – 91–92).

والمفاهيم ليست بالضرورة ثابتة لا تتغير على الدوام، بل نجدها قابلة للتعديل والتبديل والإنماء بما أنها تلخص انطلاقا من الوقائع التي تتكشف بشكل أو بآخر للعلماء والباحثين، وكذا من النتائج المحصل عليها في وقت ما، وبما أن الوقائع متغيرة على الدوام، والعالم يحاول دائما أن يضع أفضل المعاني التي يمكن أن تعبر عن الواقع، ومناسبتها

للأهداف التي يريد تحقيقها، كان ذلك مدعاة لتتغير دلالات المفاهيم العلمية بتكرار هذه المحاولات واستمرارها.

بالإضافة إلى أن المفاهيم تتأثر بالثقافة السائدة، فالقول بنسبية الظاهرة الاجتماعية قد "ترتب عليه ظهور المشكلات المتعلقة بالمفهوم من حيث خضوعه لنسبية الثقافة ... وذلك ما ترتب عليه استخدام المفهوم بدلالات متمايزة نسبيا فيما بين الثقافات المختلفة" (السيد علي شتا 1993 – 40). فمفهوم **الدين** في المجتمعات الإسلامية كالمجتمع الجزائري يختلف عنه في المجتمعات اللادينية كالمجتمع الفرنسي ويختلف عنهما في المجتمعات الوثنية كالمجتمع الهندي.

ويفيد تحديد المفهوم في أداء عدة وظائف هامة منها ما ذكره **روبرت ميرتون** حيث يقول بأن المفاهيم تساعد على" توضيح المعطيات التي تندرج تحت المفهوم، ومن ثم يساعد ذلك على التقليل من تدخل المعطيات الغريبة، وضم المعطيات الخارجية عنه والتي ينبغي أن تندرج تحته. ونجاح المفهوم في تحديد معطياته الأساسية قد يفيد في إزالة كثير من الغموض المتضمن في بعض النظريات، بل يؤدي أحيانا إلى تأسيس سلسلة عديدة من الفروض التي توسع من نطاق النظرية"(علي ليلة 1983– 39).

بالإضافة إلى ذلك يرى **ميرتون** أن "المفهوم يفيد في إلغاء التناقضات الظاهرية في المعطيات الإمبريقية عن طريق تقرير أن هذه التناقضات ظاهرية فقط. كذلك يفيد تحديد المفهوم أو التوضيح التصوري في تحديد المؤشرات التي يمكن ملاحظتها بالنسبة للمعطيات الاجتماعية التي يتم بها البحث الأمبريقي"(علي ليلة 1983 – 39).

والمفهوم له وظيفة منهجية، إذ يقوم بمهمة توجيه المشاهدة الميدانية والإدراك الذهني وربط المصطلحات بالأهداف والموضوعات المحددة مما يجعل بالإمكان تحديد معانيها.

وعليه فإنه "يجب أن نذكر أن مهمة توضيح المفاهيم الاجتماعية لا تقف عند حد التفسير والتوضيح بل تأخذ جانبا آخر هو مساعدة الباحث في تحديد أهداف بحثه وعمله الميداني وتقريبه من الموضوعية العلمية في البحث الاجتماعي لأنها تعطي استدلالا بصورة عامة ومصاغة بشكل علمي ومستخلصة من واقع الدراسة"(معن خليل عمر983 – 34).

"ولهذا ينبغي أن يندرج المفهوم في تصميم البحث، و يدخل كوحدة أساسية في الإطار التصوري لعملية البحث" (محمد عارف 1975 – 1991).

فالدقة في تحديد المفاهيم شرط لازم في اللغة العلمية، ولبناء النظريات أو لإجراء المشاهدات الميدانية الدقيقة، أو للوصول إلى فهم صحيح للحياة الاجتماعية ومسارها.

وعلى الباحث عندما يتبنى مفاهيم معينة أن يستخدم مصطلحاتها المناسبة حتى يحافظ على وحدتها وتميزها وعلميتها.

المراجع:

ابن خلدون: **المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي–** لجنة البيان العربي، القاهرة، مصر، ط 2، 1965.

بوتومور: **النخبة والمجتمع– ترجمة جورج جحا**، المؤسسة العربية للدراسات بيروت، لبنان، 1972.

زينب رضوان: **النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي–** دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1982.

محمد أحمد مصطفى السرياقوسي: **التعريف بمناهج العلوم–** دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1986 .

محمد محمود الجوهري وعبد الله الخريجي: **طرق البحث الاجتماعي** – دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط4 ، 1983.

محمد علي محمد: علم الاجتماع والمنهج العلمي– دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1983.

محمد عارف: **المنهج في علم الاجتماع: في ضوء نظرية التكامل المنهجي–** مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط 2 ، 1975.

محمد الغريب عبد الكريم: **البحث العلمي: التصميم والمنهج والإجراءات–** المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط 2 ، 1982.

معن خليل عمر: **مناهج البحث في علم الاجتماع–** دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1996.

السيد علي شتا: **نظرية علم الاجتماع–** مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1993.

عبد الباسط محمد حسن: **أصول البحث الاجتماعي–** مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط 8 ، 1982.

عبد القادر هاشم رمزي: **الدراسات الإنسانية في ميزان الرؤية الإسلامية: دراسة مقارنة،** دار الثقافة، الدوحة، الإمارات العربية، 1984.

علياء شكري وآخرون: **قراءات معاصرة في علم الاجتماع**– دار الكتاب للتوزيع، القاهرة، مصر، ط2 ، 1983.

علي ليلة: **النظرية الاجتماعية المعاصرة**– دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2 ، 1983.

فاخر عاقل: **أسس البحث العلمي في العلوم السلوكية**– دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1979.

فضيل دليو وآخرون: **أسس المنهجية في العلوم الاجتماعية**– منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1999.

صلاح سليمان قنصوة: **الموضوعية في العلوم الإنسانية**– دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1980.

صلاح سليمان قنصوة : **فلسفة العلم**– دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1981.

روبرت موريسون ماكيفر وشارلز هنت بيدج: **المجتمع**– ترجمة علي أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط 3 ، 1971.

Maurice Angers: **Initiation pratique a la méthodologie des sciences humaines** – Casbah université − Alger − 1997 .